بين فنون التاريخ وفنون الحرب

٥ ـ خالد بن الوليد *

في حروب الردة

للفريق طه باشا الهاشمي

رئيس أركان الجيش العراقي

« لقد شهدت مائة زحف أو زهاءها وما في بدني شبر إلا وفيه ضربة أو طعنة ، وهأنذا أموت على فراشي كما يموت البعير ! فلا نامت أعين الجبناء »

خالد بن الوليد

ويختلف الرواة في الحركة التي جرت ، فالأخبار التي يستند اليها الواقدي والبلاذري لا تبحث في غارة المرتدين على المدينة ، ولا تذكر موقع ذي حسى ، وتذكر أن أبا بكر لما علم أن القبائل اجتمعت في ذي القصة بقصد الغارة قرر أن يقاتلها في عقر دارها غير مبال بقلة عدده ، وقصده من ذلك إرهاب المرتدين والقاء الرعب في قلوب العرب ، وجعلهم يعتقدون أن المسلمين أقوياء وأن ذهاب جيش أسامة لم يقلل من قوتهم ، فتقدم أبو بكر على رأس المقدمة الراكبة نحو ذي القصة يعقبه الكوكب (القسم الأكبر)

وبالنظر الى رواية سيف أن الجمال بعد أن نفرت براكبها ، ودخلت المدينة بات أبو بكر ليلته يتهيأ للهجوم ، فبعد أن رتب قوته خرج مبكراً من المدينة وباغت عدوه فهزمه شر هزيمة . والذي يلوح لنا أن الروايات الأولى هي الأصح . وكانت قوة المقدمة تبلغ مائة رجل ، وسارت يومها وعسكرت مساء بالقرب من أبجة ، فباغتها العدو من مكمنه وألجأها الى الفرار ، فاحتمى أبو بكر بالأبجة منتظراً ورود الكوكب (القسم الأكبر) ولما نادى أحد المسلمين بوروده انهزم المرتدون ، فطاردهم المسلمون الى ثنايا العوسجة ثم قفلوا راجعين الى ذي القصة

ويذكر الواقدي أن أبا بكر لم يخرج طول ذي القصة إلا بعد عودة جيش أسامة الى المدينة ، غير أنا لا نميل الى رأيه ، لأن مجرى الأخبار يدل على أن قوة المسلمين كانت ضئيلة لما خرجت من المدينة قاصدة العدو . ويزعم سيف أن بني ذبيان وعبس بعد هزيمتهم هذه وثبوا على من فيهم من المسلمين فقتلوهم ، وحلف أبو بكر ليقتلن من المشركين في كل قبيلة . وليقتلن من كل قبيلة بمن قتلوا من المسلمين . وكانت وقعة ذي القصة والبقعاء أول نصر للمسلمين على المرتدين ، ومنها تظهر فراسة أبي بكر وصلابة عوده

لابد أن القارئ انتبه الى فساد خطة القبائل في محاولتهم غزو المدينة ، إذ بدلاً من أن يجتمعوا في محل واحد للهجوم على المدينة أو أن يقاوموا جيش المسلمين معاً اجتمعت كل قبيلة في حيها ، فاجتمع بنو أسد في السميراء ، وغزارة في طيبة ، وجديلة وغوث من طيء في جبليهما ، وذبيان وعبس اجتمعت فرقة منهما بالقرب من الربذة والأخرى في ذي القصة أو البقعاء

والداعي الى تفرقهم على ما يظهر أن المياه في كل محل من تلك المحلات لم تكن كافية لأرواء جماعة كبيرة ، وكان الكلأ قليلاً فضلاً عن صعوبة اجتماع كلة القبائل على غاية واحدة

وكان قبل ذلك حلف بين بني أسد وغطفان وطيء ، بيد أن قتالاً وقع بين غطفان وبني أسد من جهة وطيء من جهة أخرى فأمست القبائل متخاصمة . وكذلك كلة طيء لم تكن مجتمعة فمال الى المرتدين فرقتان منها فقط ، وهما جديلة وغوث . أما الفرق الأخرى فبقيت على إسلامها . وكانت القبائل في قيامها على المدينة يراقب بعضها بعضاً ، ولا تريد أن تكون البادئة بالعداء ، ذلك ما جعل كلا منها يبقى في حيه ويراقب عمل الآخر

وقد اختبر الصديق حالة القبائل وتأكد أن كلتها لم تجتمع ، لذلك لم يشأ أن يؤخر جيش أسامة عن سفره ، واكتفى برجال المدينة والموالين من القبائل القريبة منها وقد أيدت الوقائع رأيه . وبعد انتصار أبي بكر على القبائل في البقعاء قفل راجعاً الى المدينة ، ولما شاع خبر انتصار المسلمين على أهل الردة في أول قتالهم أخذت الصدقات تأتي من الأطراف بعد أن تردد أهلها في إرسالها ، فوردت صدقات عدي بن حاتم من طيء وصدقات أخرى

وبعد مدة قصيرة عاد جيش أسامة من الشمال ، فقرت به أعين المسلمين فلم يمهل أبو بكر المرتدين بعد أن بلغه أن بني عبس وذبيان

(*) وهو بحث فني قيم لا يضطلع بمثله اليوم فيما نعلم غير كاتبه الفاضل . « الرسالة »

أوقعت بمن فيها من المسلمين ومثلت بهم ، وبعد وقعة ذى القصة أراد أن يغير من فى الأبرق فأراح جيش أسامة بضعة أيام وخرج بالقوة التى سار بها الى ذى القصة بعد أن أنجدها بالناس من جيش أسامة وتوجه نحو الأبرق ، وفيه الفرقة الثانية من بنى عبس وذبيان وبنى كلاب وغيرهم

وقد ناشده كبار الصحابة بألاّ يعرض نفسه للخطر بقيادة الجيش بنفسه إلا أنه لم يجب طلبهم . فبعد أن عبأ جيشه باغت المرتدين فى الأبرق فهزمهم شر هزيمة وانسحبت فلولهم الى السميراء والتحقت ببنى أسد ، ولما رأى طليحة الخطر انسحب بجميع القوات التى التفت حوله الى بزاخة

وأقام أبو بكر فى الأبرق وكان يملكه بنو ذبيان ، فأعطى مراعيهم لخيل المسلمين وحرم بطون ذبيان منها

تولية خالد بن الوليد قيادة الجيش :

تدل الأخبار على أن خالداً اشترك فى قتال ذى القصة والأبرق مع المهاجرين ، ولما رجع أبو بكر الى المدينة انسحبت قوة المسلمين الى ذى القصة ، وتولى قيادتها خالد بن الوليد

وتذكر الروايات التى تبدأ بسيف بن عمر أن أبا بكر لما وصل الى المدينة جمع رجالاً من القبائل المجاورة للمدينة وأرسلها الى ذى القصة لتقوية جيش المسلمين . ثم عاد الى ذى القصة فاستعرض الجيش وقسمه الى إحدى عشرة فرقة ، وعين قائداً لكل منها فوجهها الى مناطق المرتدين فى جزيرة العرب لقتالهم والقضاء على حركة الردة

وهذه الرواية التى يرويها سيف يصعب تصديقها وذلك :

أولاً — لأن قوة المسلمين لم تكن فى عدد يكفى لتقسيمها الى إحدى عشرة فرقة

ثانياً — إن ايفاد فرق البحرين وعمان ومهرة وحضرموت واليمن قبل قمع الفتنة فى قلب جزيرة العرب مسئلة فيها نظر .

وعمر طريق البحرين وعمان ومهرة ببلاد بني حنيفة ، وفيها مسيلمة ثائر ، وهو معتصم فى بلاده الوعرة . والحقيقة أن قوة جيش المسلمين لم تجاوز بضعة آلاف على ما ذكرناه فى بحث تقدير قوة الفريقين . فجيش أسامة لم يجاوز ستة آلاف ، أما القوة التى جهزها لمقاتلة من اجتمع فى ذى القصة فلم تتجاوز الألفين .

فتقسيم هذه القوات جميعاً الى أحد عشر قسماً مما يجعل كلا منها ضعيفاً بحيث لا يستطيع القيام بالواجب المنوط به . بينما الأخبار تؤيد أن جيش خالد بن الوليد وحده كان يبلغ أربعة آلاف رجل ، ثم إن هناك أخباراً تؤيد حبوط هجوم فرقة عكرمة بن أبي جهل ، وكذلك هجوم فرقة شرحبيل بن حسنة على قوات مسيلمة وانسحابهما الى الوراء والتحاقهما بفرقة خالد بن الوليد مما يجعلنا نميل الى الاعتقاد أن أبا بكر فكر قبل كل شيء فى القضاء على حركة الردة فى وسط جزيرة العرب ، وجمع لذلك ما فى يده من القوات المتيسرة وناط قيادتها بخالد

قوة الجيش :

إن الرواة على عهدنا بهم لم يروا لنا مقدار قوة المسلمين التى احتشدت بقيادة خالد بن الوليد فى ذى القصة . والمصدر الوحيد الذى يذكر لنا قوة خالد هو أبو حبيش ، إذ يروى لنا أنها كانت تبلغ أربعة آلاف مقاتل قبل حركته الى بزاخة

وكان الجيش على ماسبق بيانه مؤلفاً من القوة التى جمعها أبو بكر من القبائل المجاورة للمدينة على جناح السرعة للهجوم على المرتدين فى ذى القصة بعد تهديدهم للمدينة ، ومن القسم الذى التحق به من جيش أسامة بعد عودته الى المدينة قبل الهجوم على الأبرق . ومن الواضح أن البعض منه تخلف عن الالتحاق ليقضى مدة من الزمن بين أهله بعد أن غاب عنهم مدة شهرين فى سفره الى الشمال

والذى يظهر من رواية سيف أن أبا بكر لما عاد الى المدينة أرسل هذا القسم المتخلف أيضا الى ذى القصة ، وبعد التحاقه أصبح جيش خالد أربعة آلاف أو أكثر . وكانت قوة الانصار وحدها تبلغ زهاء خمسمائة مقاتل . أجل ، إن هذا العدد ضعيف بالنظر الى المهمة الخطيرة المنوطة به ، إلا أن تجانس القوة فى هذا الجيش وصلابة المعتقد فيه ، وتفرق كلمة القبائل المرتدة جعلته أهلا للعمل

منطقة الحركات :

يحد المنطقة التى جرت فيها الحركات من الشرق ، الدهناء ، وهى الساحة الرملية الممتدة من الشمال الغربى الى الشرق الجنوبى فى شرق القصيم . وكانت الدهناء ولا تزال المفازة التى تفصل

أرض السواد (أعنى العراق) عن بلاد نجد . ويحدها من الشمال جبل شمر أعنى بلاد طيء المرتفعة التى تمتد جبالها على ما سبق من الشمال الشرقى الى الجنوب الغربى ، وأخطرها جبلا سلمى فى الجنوب وأجأ فى الشمال ، وفيها وديان كثيرة أجلها شأناً وادى حائل ، وهو يبدأ من بزاخة طيء بشعاب متعددة ، ويفصل الجبلين أحدهما عن الآخر حيث تنصب فيه عدة شعاب من الشمال والجنوب وتغمره بالمياه فى موسم الأمطار . وقد شيدت على جانبيه القرى التى ترتوى بمياه الآبار المنصرفة اليها من الجبال . ولما كان جبل سلمى وجبل رمان يشرفان على وادى الرمة من الجهة الشمالية ، فالشعاب التى تمر بالأطناف الجنوبية تنحدر جميعاً الى ذلك الوادى . وهذه الأطناف هى الحدود الفاصلة بين حى بنى أسد وحى فزارة من بنى غطفان ، وقريتا فيد وطابة لبنى طيء وهما على الحدود

ويحد منطقة الحركات من الغرب حرة خيبر ، ومن الجنوب الهضبة المشرفة على وادى الرمة من الجنوب ، وفيها بنو سليم فى الشمال وبنو عامر فى الجنوب . وموقعا العمق فى الغرب ورابية أبان الأبيض فى الشرق فى أرض بنى سليم

والوادى أرض منخفضة بين هضبتين مرتفعتين تنصرف اليه جميع المياه التى تنزل عليهما فى موسم الأمطار . وإذا حفرنا الآبار فى بطنه على عمق بضعة أقدام نعثر فيها على ماء كثير . والطريق التى تصل الدينة بلاد القصيم تمر بهذا الوادى . وبعد أن يترك المدينة يمر بالبقعاء أو ذى القصة بالقرب من سابية ، ثم بالشقرة فالربذة بالقرب من الحناكية فالمشقق فبئر الطرفة ، فالى جنوب أكمة الخيمة حيث يدخل أرض بنى أسد ، ويمر بعد ذلك بين الأبانين : أبان الأسود فى الشمال ، وأبان الأبيض فى الجنوب . والأسود فى أرض بنى أسد الى أن يمر بشمال الرس وهو بئر ماء لبنى أسد ، فيصل الى القريتين فى بلاد قصيم ، أعنى المنيزلة فى الجنوب وبريدة فى الشمال وكلتاهما فى حى بنى تميم

ويسكن بنو أسد فى الساحة الواسعة التى شمال الوادى من جنوبى فيد وأطابة غربى السميراء والظهران والسليلة .

وفى غربى النقرتين نقرة السلاسل ونقرة الخطوط وجبل صارة . وفى أرض بنى أسد يقع موقع الغمر وهو رابية مرتفعة تشرف على وادى الغمر الذى ينبع من سفح جبل الوشم الشمالى ويصب فى الكهفة . وبالقرب منه تقع بزاخة بنى أسد . وهى الموقع الذى نشبت فيه المعركة بين جيش خالد وجيش طليحة .

والذى جعلنا نميل الى الاعتقاد بأن موقع بزاخة فى هذا المحل هو ماذكره ياقوت الحموى فى معجمه نقلاً عن ابن الكلبى . أما الأصمعى فيروى أن بزاخة ماء لطيء . وفى جبل طيء موقع آخر يسمى بزاخة . وعلى ما يظهر لنا من مجرى الحركات أن القتال بين المسلمين وبين المرتدين لم يقع فى أرض طيء ، بل وقع فى أرض بنى أسد بالقرب من الغمر ، ولا سيما أن خالداً بعد انتصاره على طليحة وجه سراياه فى جهات مختلفة مطارداً فلول المنهزمين . وهذه السرايا قاتلت المنهزمين فى جبل رمان وفى الأبانين . ولا يعقل أن المعركة نشبت فى بزاخة طيء والطاردون يطاردون المنهزمين الى رمان والأبانين ، بل من المعقول أن تنشب المعركة فى جوار الغمر فيشرد المنهزمون الى أنحاء مختلفة ، فينهزم بنو فزارة الى حيهم فى جنوبى الرمان وغربيه ، وبنو أسد الى الأبانين والى ظفر فى جوار كهفة والى النقرة — أعنى الى حدود الحمى

وفى منتهى الشرق بلاد بنى تميم والقصيم على الحدود بين بنى أسد وبنى تميم . وهى من أغنى البقاع الواقعة فى نجد ، وتحدها رمال الدهناء من الشرق ، وفى غربيها مراعى الحزن ، وفى شرقيها مراعى الصمان ، وكلتا البقعتين من أخصب المراعى وهما لبنى تميم . وبنو يربوع فى الحزن الى وادى حائل ، والصمان الى بنى حنظلة ، وماء الطريفة فى شمالى البريدة لهم أيضاً . والبطاح فى جنوبى الحزن وفيه قرية بريدة وموقع البعوضة والقمرة ، وهو مشهور بجودة الكلأ وفيه دارت الدائرة على مالك بن نويرة رئيس بنى يربوع

ولا تزال إحدى ضواحى البريدة تسمى بالبطاح ، والقصبة تتألف من أربع ضواح ، وهى جردة وجديدة وشمال وبطاح .

وموقع النباج فى حى بنى تميم وهو المحل الذى وصلت اليه سجاح برجالها فقاتلها بنو تميم وكسروها ، وهو واقع فى الحزن على طريق الكوفة بعد الفيد

يتبع

طه الهاشمى